

رقم الدرس ١

الجمعة ٧-١١-١٤٤٧هـ

شرح كتاب التوحيد

لشيخ الإسلام/ محمد بن عبد الوهاب التميمي - رحمه الله -

الملقاة بمسجد النبي - صلى الله عليه وسلم -

لفضيلة الشيخ الدكتور

محمد بن محمد المختار بن محمد بن مزيد الجكني الشنقيطي

المدرس بالحرمين الشريفين

وعضو هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية

ومفوض الإفتاء بمنطقة المدينة المنورة

حفظه الله تعالى ونفع بعلمه وغفر له ولوالديه ولجميع المسلمين

ملاحظة: هذه الدروس لم تُراجع من فضيلة الشيخ - حفظه الله -.

(أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)

{هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

الشرح:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على أشرف الأنبياء والمرسلين وخيرة الله من الخلق أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن سار على سبيله ونهجه واستتر بسنته إلى يوم الدين، أما بعد:

{سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ}، هذا الدرس الذي نسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يجعله خالصاً لوجهه، موجباً لرضوانه، وأن يرزقنا جميعاً فيه الإخلاص في القول والعمل؛ إنه سميع مجيب.

هذا الدرس يتعلّق بأعظم الواجبات، وأعظم الفرائض والمهمّات التي من أجله خلق الله الخلق، ومن أجله أنزل كتبه، وأرسل رسله، ألا وهو توحيد الله.

وقد أجمع العلماء والأئمة -رحمهم الله- على أنه ما تقرّب عبدٌ إلى ربه بشيءٍ أعظم من الإخلاص لوجهه، وإفراده -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- بالعبادة وتوحيده وأداء حقه.

فإذا وُفّق العبد لهذا الأصل العظيم فتحت في وجهه أبواب السعادة، ويتأدّن الله له بالخير في دينه ودنياه وآخرته، فمفتاح الخير كلّ توحيد لله، وأوّل الأمر كلّ توحيد لله، ولذلك قال -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}.

فحقّ الله أعظم الحقوق، ولذلك قرّر العلماء والأئمة -رحمهم الله- أنّ العناية بحقّ الله -عزّ وجلّ- بتحقيقه والقيام بحقوقه، وكذلك الاشتغال بتعلّم هذا الحقّ، ومعرفة ما يناقضه ويضادّه، والعناية بذلك بتطبيق الإنسان له في خاصة نفسه، ثم العناية بتعليمه للناس، أنّ هذا أجلّ القربات، وأعظم الطاعات، وأحبّها إلى الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى-.

فعلم التوحيد هو أصل الأصول، ومنبع العلوم، فأبني مقام للعبد أعظم من مقام الصادقين الذين أخلصوا لرب العالمين، فخلصت لله -عزّ وجلّ- قلوبهم، وخلصت لله جوارحهم وأقوالهم وأعمالهم، فإذا تكلموا

تكلّموا لرّبهم، وإذا عملوا عملوا لرّبهم، وكان قولهم وعملهم صواباً سداداً على منهج الكتاب والسنة، وعلى طريقة الشريعة والملة، فهذا هو الذي يسعى الموفق إلى البحث عنه، والسؤال عنه. ثم يحرص كلّ الحرس على ضبطه وإتقانه، وتعليمه للناس، فيهدّي به في نفسه أولاً، ثم يهدي به الغير بإذن الله -عزّ وجلّ-.

كانت الأمة على صفاء ونقاء، وتركها النبي -صلى الله عليه وسلّم- يوم تركها على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، وكانت على صفاء المعتقد، ثم تتابعت القرون تلو القرون والناس يتباعد عهدهم بنبيهم -صلوات الله وسلامه عليه-، فعوّرت معالم الدين، وعوّرت معالم الحنيفية، وأخذ شياطين الإنس والجن بقلوب العباد من توحيد الله الخالص وإفراده بالعبادة إلى أمور انتهت إلى أعظم المعاصي وأشدّها وهو الشّرك بالله -والعياذ بالله-، فاتبعوا خطوات الشيطان شيئاً فشيئاً، ولبس عليهم في دينهم، وضلّوا في معتقدهم حتى أصبحت الأمة في دياجير الظلمات في أعظم شيء في أمر دينها، وهو توحيد الله -عزّ وجلّ-، فعبدت القبور من دون الله، فاستغيث واستجير بأهلها، وسئل من أصحابها ما لا يسأل إلا من الله وحده لا شريك له، وذبح عنده، وطافوا بها.

ووجد من يسوق لهم ذلك، ويؤيّن لهم ما فعلوا: (أنّ هذا من طاعة الله، وأنّ حبّ هؤلاء المقبورين والدّبح لهم والنذر لهم والطواف بمشاهدهم والعناية بقبورهم أنه قربي لله -عزّ وجلّ-، وأنه، وأنه)، حتى ضاع حقّ الله العظيم، وأصبحت الأمة مضيّعة لأساس صلاحها وفلاحها في دينها ودنياها وآخرتها. وقال أن يتكلّم عالم إلا وسقّه، وظنوا به السوء، وأنه لا يعرف مقام الصالحين، وأنه لا يعرف حقوقهم، وكلّ من ذكرهم بأصل الدّين وتوحيد الله وإفراده بالعبادة همزوه ولمزوه، ولربما قتلوه، وعادت الأمة إلى عظيم من البلاء والعمة حتى أراد الله بها الخير العظيم، فخرج إمام مجدّد لدينها، ومصحح لمعتقدها، إمام اصطفاه الله لهذا الأمر العظيم، فتعلّم العلم النافع، وحرص على الارتواء من معين الكتاب والسنة، والاهتداء بهدي النبي -صلى الله عليه وسلّم- والسلف الصالح للأمة.

إنه الإمام المجدّد المصلح شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي -رحمه الله برحمته الواسعة-، فملا الله قلبه بتوحيده، والغيرة على دينه، فاشتغل بطلب هذا الأصل العظيم وتحقيقه ومعرفة حقه وحقوقه، فشرح الله صدره لما أنزل الله من أجله كتبه، وأرسل به رسله.

فقام هذا الإمام المصلح الصالح -نحسبه- قام بما يجب أن يقوم به العالم الغيور على دين الله، وإذا لم يغير العلماء على التوحيد، فعلى أي شيء يغاروا؟!

فقام -رحمة الله- وصدع بالحق في زمانٍ يعظم ويصعبُ أن يتكلَّم أحدٌ بما تكلم به، فأقام رأيته، ونصب بتوحيد الله والتفاني في تعليم الناس هذا الأصل ودلائلهم عليه، وكشف الشبهات التي تتعلق به، تفاني -رحمة الله- ووجد في ذلك ما وجد.

فما جاء عبدٌ بما جاء به ولا جاء مصلحٌ ولا داعيةٌ بمثل ما جاء به إلا وأوذي، فأخرج من داره، وصدق ورقة إذ قال لنبي الأمة من قبله، ((قال: أومخرجي هم؟ قال: ما جاء أحدٌ بمثل ما جئت به إلا وأذاه قومه))، فأذاه الناس، ولكن رزقه الله من القوة في الحق والصدق مع الله -نحسبه ولا نزكيه على الله-، فآثارُ دعوته وآثارُ إصلاحه ظاهرةٌ شاهدةٌ للعيان، نحسبه أنه صادقٌ مع ربه.

فلما أوذي وأضطهد، ووجد ما وجد ما زاده ذلك إلا صلابَةً في الدين، وحرصاً على تبليغ شرع رب العالمين، وتفاني حتى قيض الله له رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فعاهده الإمام محمد بن سعود -رحمة الله برحمته الواسعة-، عاهده على النصرة، وعلى المنعة في ذات الله، وابتغاء مرضاة الله، وقال له: إنه يعاهده على النصرة والمعونة، فكان جوابه -رحمة الله- (وأنا أعدك العزة والتمكين)، فمكّن الله لهذا الإمام، ومكّن لذريته من بعده الذين تفانوا في نصرة هذه الكلمة كلمة التوحيد، فكانوا -نحسبهم- أحقّ بها وأهلها بما ظهر من الشواهد الصادقة على صدقهم في نصرة هذا الدين.

ولقد صدق -رحمة الله-، وصدقت ذريته من بعده، فلا تُذكرُ دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلا ودُكرت مآثر الإمام محمد بن سعود وذريته، نعم لقد وقفوا معه موقفَ صدقٍ، وهذه سنة من الله أن الحق يحتاج إلى من يدعمه، ومن يناصره كما قال تعالى في نبيه عيسى: {وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ}، فالحق يحتاج إلى معونة، وإلى أنصار، والشيخ التمس -رحمة الله- هدي الكتاب والسنة، فوققه الله لمن هو أهل -نحسبه- لذلك، وكذلك كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يعرض نفسه على قبائل العرب: ((مَنْ يُنَاصِرُنِي؟ وَمَنْ يَمْنَعُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ كَلِمَةَ اللَّهِ؟)).

فوقف الإمام محمد بن سعود وقفةً لن ينساها الله له، ولن ينساها الصالحون، فقد بذل النفس والنفس والغالي والرخيص حتى عاداه القريب والبعيد، ورفع راية التوحيد متفانياً في نصرتها، والوقوف مع الإمام في دعوته من أجلها، وأضطهد أبناءه وأحفاده حتى هُدمت الديار، وقُتِل الرجال، ويَتَم الأطفال، ورُمِل النساء، فما زادهن ذلك إلا إصراراً وإيماناً بصدق هذه الدعوة، فزادهن الله قوةً وشكيمةً، وعادوا في ذلك الدول حتى جاءوا إليهم بقضيتهم وقضيتهم ورجالهم وعتادهم، فوجدوا رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه.

لا يُعْرَفُ فِي التَّارِيخِ أَنَّ دَوْلَةَ زَالَتْ ثُمَّ عَادَتْ، إِلَّا هَذِهِ الدَّوْلَةُ أَعَزَّهَا اللَّهُ، فَإِنَّمَا إِذَا زَالَتْ عَادَتْ مَرَّةً ثَانِيَةً، ثُمَّ ثَالِثَةً؛ لِأَنَّ مَا أُسِّسَ بِنْيَانُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ لَيْسَ كَغَيْرِهِ، فَهَذِهِ الدَّوْلَةُ أُسِّسَتْ مِنْذُ فَجَرِ تَارِيخِهَا عَلَى نَصْرَةِ أَعَزِّ شَيْءٍ جَاءَتْ بِهِ الرُّسُلُ، وَأُنْزِلَتْ مِنْ أَجْلِهِ الْكِتَابُ، وَهُوَ تَوْحِيدُ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فَكَانَ أَمْرُ هَذَا الْإِمَامِ وَذَرِيَّتِهِ فِي الدَّرْعِيَّةِ، ثُمَّ انْتَشَرَ حَتَّى بَلَغَ شِمَالَ الْجَزِيرَةِ وَجَنُوبَهَا وَشَرْقَهَا وَغَرْبَهَا. ثُمَّ نَشَرُوا كَلِمَةَ اللَّهِ حِينَمَا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ لَمَّا قَبِضَ اللَّهُ الْمَلِكُ عَبْدِالْعَزِيزِ -رَحِمَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ- الَّذِي جَاءَ وَنَاصَرَ هَذِهِ الدَّعْوَةَ، فَجَمَعَ اللَّهُ بِهِ الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَعْدِ فِرْقَةٍ، وَأَعَزَّهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلَّةٍ، وَأَكْرَمَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَهَانَةٍ.

لَنْ تَقْرَأَ آيَةً فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا ذَكَرْتَ هَذَا الْفَضْلَ الْعَظِيمَ الَّذِي تَعِيشُهُ الْأُمَّةُ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ بِهَذَا الْإِمَامِ وَالْمَلِكِ الصَّالِحِ الْمُصْلِحِ -رَحِمَهُ اللَّهُ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ-، {فَأَوَّاكُمُ وَأَيَّدَكُمُ بِنَصْرِهِ وَزَرَقَكُمُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ}، وَاللَّهُ مَا قَرَأَهَا إِلَّا ذَكَرْتُهُ، وَتَرَحَّمْتُ عَلَيْهِ.

كَانَ النَّاسُ فِي شَتَاتٍ، فَجَمَعَ اللَّهُ شَمْلَهُمْ، كَانَتْ الْجَزِيرَةُ فِي فِرْقَةٍ وَحُرُوبٍ وَدِمَاءٍ تَسِيلُ بِحَقِّ أَوْ بَدُونِ حَقٍّ، فَجَمَعَ اللَّهُ الْقُلُوبَ وَالْأَرْوَاحَ، وَاتَّלَفَتْ عَلَيْهِ، وَصَاغَهَا اللَّهُ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ الْعَظِيمَةِ، نَعَمْ إِنَّمَا تُذَكِّرُ؛ لِأَنَّهَا نِعْمَةٌ مُتَّصِلَةٌ بِالْدِّينِ.

فَمَضَى عَلَى ذَلِكَ هَذَا الْإِمَامُ، وَمَضَى مِنْ بَعْدِهِ نَسْلُهُ إِلَى يَوْمِنَا، وَنَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَبْقِيَ هَذَا الْفَضْلَ لَهُمْ، وَأَنْ يَعِظَمَ أَجُورَهُمْ، وَأَنْ يَرْحَمَ بِرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ مِنْ سَلَفٍ مِنْهُمْ.

تَرَى الْيَوْمَ كَيْفَ تَخْرُجُ قَوَافِلُ الدَّعْوَةِ مِنَ الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ إِلَى مَشَارِقِ الْأَرْضِ وَمَغَارِبِهَا، تَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ، وَتَحْمِلُ هَمَّ هَذَا الْأَصْلِ الْعَظِيمِ؛ كُلُّهُ بِفَضْلِ اللَّهِ ثُمَّ بِفَضْلِ وَلَاةِ الْأَمْرِ الَّذِينَ كَانَ لَهُمْ أَعْظَمُ الْفَضْلِ بَعْدَ فَضْلِ اللَّهِ -عَزَّ وَجَلَّ- فِي ذَلِكَ.

فَإِذَا ذُكِّرُوا فَإِنَّ الْمُسْلِمَ يَدْعُو لَهُمْ بِصَالِحِ دَعَائِهِ؛ لِأَنَّ الْخَيْرَ يَعُودُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي دَعَائِهِ، فَنَسْأَلُ بِعِزَّتِهِ وَجَلَالِهِ وَعَظَمَتِهِ وَكَمَالِهِ وَأَسْمَائِهِ الْحَسَنَى أَنْ يَمْطُرَ قُبُورَ مَنْ سَلَفَ مِنْهُمْ بِالرَّحْمَاتِ، اللَّهُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِمْ شَأْبِيبَ الرَّحْمَاتِ، وَاجْعَلْهُمْ فِي أَعَالِي الدَّرَجَاتِ، وَاجْزِهِمْ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالْمُسْلِمِينَ خَيْرَ الْجَزَاءِ وَأَوْفَاهِ وَأَعْظَمِهِ وَأَسْنَاهِ.

النَّاسُ الْيَوْمَ تَعِيشُ ثَمَرَاتِ هَذَا الْخَيْرِ الْعَظِيمِ، وَهُوَ الدَّعْوَةُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَإِفْرَادِهِ بِالْعِبَادَةِ، وَتَجِدُ الشَّوَاهِدَ وَالْدَّلَائِلَ صَادِقَةً عَلَى ذَلِكَ، وَلِذَلِكَ تَكْفَلُ اللَّهُ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ بِخَيْرِ الدِّينِ وَالْدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}، مَا الَّذِي جَعَلَ هَذِهِ الْبِلَادَ تَعِيشُ الْأَمْنَ

الوارف إلا فضل الله، ثم فضل التوحيد والإيمان، ثم ما قيض الله من الأسباب من ولاية الأمر ورجال الصدق الذين حرصوا على حفظ هذه النعمة.

التوحيد نعمة لا يعلم بركاها وخيراتها في الدين والدنيا إلا الله وحده.

التوحيد نعمة تنتهي بالعبد إلى سعادة لا يعلم قدرها إلا الله، فالذين سعادوا هم أهل التوحيد، والذين سلمهم الله من سوء الدنيا ومكارهاها هم أهل التوحيد.

توحيد الله -عز وجل- وإفراؤه بالعبادة من أعظم ما يشتغل به طالب العلم، وما يشتغل به العالم، وما يشتغل به كل موقف، فيسعى إلى معرفة هذا التوحيد من خلال أدلة الكتاب والسنة وهدى السلف الصالح لهذه الأمة، لذلك جاءت نصوص الكتاب والسنة، فلن تقلب صفحة في كتاب الله إلا وجدت فيها دلائل على توحيد الله في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته.

والإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- اعتنى بدلالة الناس على هذا الأصل، وما يناقضه ويضاده في هذا السفر المبارك، وهو (كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد).

هذا الكتاب الذي وفق الله فيه هذا الإمام للاستشهاد وبناء ما فيه على كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، وجاء -رحمه الله- في هذا الكتاب بدلائل دقيقة، ونثر فيه مسائل عزيزة فريدة.

من مميزات الإمام المصلح -رحمه الله-: أنه قليل العبارة، لكنه إذا تكلم أو بين فإن كلامه يحتاج إلى تعمق في الفكر وتدبر، ليس هذا مبالغة، هذه حقيقة، والله إنك تجده يصوغ الآية الكريمة، ثم يذكر المسائل منها، فتجد كلامه مطابقاً لما ذكر من الآيات والأحاديث، بعيد عن الحشو، كلامه كلام دقيق، فليس العلم بالهذ والإكثار والثرثرة، إنما العلم نور يقدفه الله في القلوب، ويصاغ في الألسنة وبالكتب وبالرسائل، فيدل على فهم من يتكلم ومن يكتب.

ولذلك في بعض رسائله كان يقول لمن يرسل له ويسأل، يدعوه إلى أن يتفهم ما ذكره في هذا الكتاب يقول له: (تفهم)، وهذا يدل على أنه يذكر العبارة ووراءها معانٍ دقيقة، ثم هذه المعاني تجده يشير إلى دلائلها في المسائل، سواء كانت النصوص المستنبطة منها من الكتاب أو من السنة.

تجد التوحيد يصاغ إليك بعبارة موجزة، وسبحان الله يفهمها العامي، ويفهمها طالب العلم، ويفهمها العالم، وكل يأخذ على قدر ما وقَّعه الله من الفهم.

فأما الأصل فيستطيع العاوي والمبسّط أن يأخذ منه، هذه سمة من سمات كتاب التوحيد، اذهب واقرأ الكتب التي كانت من قديم، بعضها يأتي بعبارة لا يفهمها إلا العلماء، لكن شيخ الإسلام -رحمه الله- يأتي بمسائل التوحيد سهلة، تجد كلاماً سهلاً، لكنه صالح للمبتدئ، صالح للعالم المتمكن. فأما المبتدئ فيأخذ نهمته وحاجته وغايته، وأما العالم فيعيش تلك المعاني الدقيقة التي ربّها: أولاً: من جهة اختياره للآيات.

ثانياً: من جهة ترتيبه لها في الكتاب.

ثالثاً: من جهة استنباط المعاني التي ضمّنها في المسائل التي يذكرها، علم دقيق، وفهم ينبغي لطالب العلم أن يوليّه حقّه من العناية. ولقد دعا حفيده بالبركة لمن يتفهّم هذا الكتاب، ولمن يتعلّمه ويعلمه، ونسأل الله أن يجعل لنا من هذه الدعوة أوفر الحظ والنصيب.

كتاب مبارك، لو لم يكن في برّكه إلا أنه يدلّ على حقّ الله، ولو لم يكن في برّكه الذي هو أعظم الحقوق، كتاب مبارك لو لم يكن في برّكه إلا أنه يصون بإذن الله المسلمين من مزلق الضلال في أعظم شيء، وهو العقيدة التي هي أصل الأصول.

كتاب التوحيد صغير في حجمه، كبير في مقامه، ولذلك اشتغل العلماء والناصحون بشرحه والعناية به، والدلالة على ما فيه، فقرّر -رحمه الله- التوحيد وبينه، واجتهد في ذكر الأبواب مرتبة للوصول إلى المقصود الذي يريد.

والتوحيد صحيح أنه اعتنى فيه بتوحيد العبادة، وجعله أصلاً أصيلاً؛ لأنه هو الذي وقعت فيه الخصومة بين الرسل، وهو الذي حدثت فيه الشبهات، وهو الذي لبس فيه على كثير من عامة المسلمين، بل قد تجد العالم لا يفرّق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، ولذلك اعتنى به أيّما عناية، وصاغه بصياغة دقيقة -رحمه الله برحمته الواسعة-.

وبإذن الله إذا يسّر الله ستكون هناك مجالس لترجمته، وبيان حياته -رحمة الله عليه-، ومنهجه أيضاً في كتبه ورسائله؛ لأنّ الوقت ضيق، فموسم الحج موسم مهم، كان سماحة الوالد الشيخ عبدالعزيز بن باز إبان رئاسته للجامعة الإسلامية إذا اقترب موسم الحج فرّع المشايخ في مسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- والدعاة لتنبيه الزائرين، والعناية بهذا الكتاب، والعناية أيضاً بتوحيد الله عموماً، وكتب هذا الإمام

المصلح وغيره من الكتب النافعة خصوصاً، ونفع الله بذلك كثيراً، ونسأل الله بعزته وجلاله أن يعظم أجره، وأن يجزل مثوبته.

وكان لذلك أطيب الأثر، ولذلك أوقفنا الدروس، وستكون -إن شاء الله- خاصة بدروس التوحيد خلال موسم، وإن كان المنبغي أن تكون طيلة العام، ونسأل الله أن يهلمنا الصواب والسداد في كل، وأن يجعل ما تعلمناه وعلمناه خالصاً لوجهه الكريم.

قال الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى -: **[بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابُ التَّوْحِيدِ، الْحَمْدُ لِلَّهِ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ]**.

الشرح:

استفتح الإمام المجدد - رَحِمَهُ اللَّهُ - كتابه بالتسمية، وهذا له أصل، قال بعض العلماء - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - في قوله تعالى: **{إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ}**، فابتدأ كتابه بالتسمية، فصار أصلاً عند أهل العلم في بداية مجالس العلم والتعليم فيما يُقرأ ويُكتب ويُسمع أن يُبتدأ بذكر اسم الله.

واسمُ الله فيه البركة كما قال تعالى: **{تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ}**.

فابتدأ المصنف - رَحِمَهُ اللَّهُ - كتابه المبارك بالتسمية مستعيناً بالله - عَزَّ وَجَلَّ -، متوكلاً على الله؛ فهو الذي يُعلم، ولا يُعلم أحدٌ سواه، ولذلك قال تعالى: **{وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً}**، والعلم حينما يذكره الله تأتي صيغته: **{وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ}**، **{وَعَلَّمْنَاهُ}**، فقولُه لما قال: **{أُوتُوا}**، **{عَلَّمْنَاهُ}**؛ دلَّ على أنه منحة من الله - عَزَّ وَجَلَّ -، فذكر اسم الله لكي يُبارك العلم، ويكون فيه الخير، هذا جارٍ عليه العمل عند العلماء والأئمة.

والابتداء بحمد الله؛ لأنَّ النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - اتبع هدي الكتاب في حمد ربه، فالله حمد نفسه، وحمده خلقه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -.

حمد نفسه، فقال: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}**، وقال سبحانه: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ}**، وقال سبحانه: **{وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبْرَهُ تَكْبِيراً}**، الله أكبر كبيراً، وقال سبحانه: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ}**، وقال سبحانه: **{قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ}**، وقال سبحانه: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}**، وقال سبحانه: **{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ}**.

فالله هو المحمود، وله الصفات الكاملة التي يُذكر بها، فيثنى عليه بها بما سَمِيَ، ووصف به نفسه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى -، وله الحمد أولاً، وله الحمد آخرًا، وله الحمد في الأولى والآخرة، له الحمد في مبتدأ الأمور، وأعظمها الدعوة إلى الخير.

ولذلك اهتدى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بهدي الكتاب، فالله استفتح كتابه بسورة الحمد، ولذلك تسمى (فاتحة الكتاب)، فقال -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- كما في الصحيحين: ((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب))، وفاتحة الكتاب أولها: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.
 فاهتدى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بهدي الكتاب، فكان يبدأ حُطْبَهُ -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- ومواعظه بحمد الله -عَزَّ وَجَلَّ-، قالت أم المؤمنين عائشة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: ((فرقى المنبر فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله)).

فالعلماء -رَحِمَهُمُ اللَّهُ- أخذوا بهذه السنة من هدي الكتاب والسنة في حمد الله -عَزَّ وَجَلَّ-؛ لأنه هو الذي علمنا، هو الذي هدانا، فهو الذي هدانا، {وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ}، وهو الذي دلنا وأرشدنا، فالفضل كله لله، فنبدأ بحمده، ونخيم بحمده، ولذلك أهل الجنة إذا رأوا النعيم وتم عليهم النعيم والشُّرُورُ: {وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ}، {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.
 فالحمد في أول الأمور، وفي ختمها، استفتح كتابه بحمد الله، فقال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [الحمد لله، وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم]، [وصلى الله]: الصلاة بمعنى الرحمة كما قال الأزهري: (صلاة الله على نبيه رحمة)، وقال الشاعر:

صلى الملوك على امرئ ودعته وأتم نعمته عليه وزادها

وتطلق الصلاة بمعنى الدعاء، ومنه: قول الأعشى:

تقول بنتي وقد قدّمتُ مُرْتَحِلاً يا ربِّ جَنَّبَ أَيْ الْأَوْصَابَ وَالْوَجَعَا

عليك مثلُ الذي صَلَّيتَ فَاغْتَمِضِي عَيْنًا فَإِنَّ لِحَنْبِ الْمَرْءِ مُضْطَجَعَا

(عليك مثل الذي صَلَّيتَ): أي دعوت، فالصلاة تطلق بمعنى الدعاء، ومنه: قوله تعالى: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ}، أي ادعُ لهم، فكان يدعو بالبركة لمن أدَّى الزكاة -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، تطلق الصلاة أيضاً بمعنى الدعاء.

والصلاة على النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أمر الله بها من فوق سبع سماوات، فقال: {إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، فأمرنا بالصلاة والسلام عليه -بِأَبِي وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-.

قال -رَحْمَةُ اللهِ-: **[وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ]** وهو خاتم الأنبياء، وهذا اسمٌ من أسمائه، وهو أحمدٌ كما في الكتب السماوية التي قبلنا: **{وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ}**، فهو أحمدٌ، وكذلك الحاشر؛ لأنَّ الله يحشر عقيبه الخلق، وتنتهي الدنيا -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، وهو الرحمة المسداة، قال -بِأَيِّ وَأُمِّي-: **((أنا رحمةٌ مسداةٌ))**.

فالنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هذا اسمه، وهذا عَلَمٌ -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، والمعرف لا يُعرف. **[وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ]:** الَّل تطلق بمعنى القرابة، "آل فلان": أي قرابته، ومنه: قولهم: (آل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-) أي قرابته.

وتطلق بمعنى أنصاره، فيقال: (آل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-) بمعنى الأنصار الذين ناصروه وتابعوه -بِأَيِّ وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-، فكلٌ من آمن بالنبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وصدَّقه واتبع ما جاء به من الحق والهدى من ربِّه فإنه من آل النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، بمعنى أنه مناصرٌ له، متبعٌ له، وهذا هو المعنى المراد، وليس المراد في الصَّلَاة على النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خصوصَ القرابة.

فالمصنَّف -رَحْمَةُ اللهِ- قصد بقوله: **[وآلِهِ]** أي أتباعه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- إلى يوم القيامة. **[وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ]**، **[وَصَحْبِهِ]:** صاحبٌ: هو المرافق الذي لا يفارق الإنسان في غالب أموره وشؤونه، والصحبة: المرافقة، سواء كانت في السفر أو الحضر، عامة أو خاصة، لكنَّ أصحاب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هم الذين آمنوا به وصدَّقوه وتابعوه -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِ-، وماتوا على الإيمان به -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، فهؤلاء هم أصحابه.

وجرت العادةُ الصحابةُ داخلون في الَّل، لكنَّ إفرادهم بالذكر؛ لعظيم حقِّهم في الإسلام، فهم الذين آووا النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كما في الأنصار، وهم الذين نصره كما في المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، هؤلاء كلُّهم ناصرُوا نبيَّنَا -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، وهم آلُه -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ-، لكن إذا قيل: **(آلُه وَصَحْبُه)** يُخصَّصُ الصحابةُ بالذكر؛ لعظيم حقِّهم وشرفهم وفضلهم في الإسلام، ولذلك أحبَّهم اللهُ، وأحبَّهم رسولُه، وأحبَّهم المؤمنون: **{وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}**، هؤلاء هم أهل الرِّضَا؛ لأنَّ الله شهد من فوق سبع سماواتٍ أنَّ أصحابَ رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أنهم أهل الرِّضَا.

واهتمَّ أئمة السلف حتى ذكروا ذلك في عقيدة أهل السنة والجماعة، اهتموا بحق الصحابة؛ لأنهم لا يحبُّهم إلا مؤمنٌ، ولا يبغضُهم إلا منافقٌ، وجعل الله لهم حقًا عظيمًا على المسلمين، وإذا طعن في الصحابة طعن في الدين؛ لأنهم هم الذين حفظوا الدين، وهم الذين بلغوه.

ولذلك تجد في عقيدة أهل السنة والجماعة حبَّ الصحابة، وتجد في عقيدتهم ذكر الصحابة بالخير، والكف عما شجر بينهم، والحرص كلَّ حرص على عدم المساس بحرمتهم، عقيدةً يعتقدُها المؤمن في قرارة قلبه؛ لأنه يعلم أنَّ فسادَ المعتقد يأتي من خلاها، بل فسادُ الدين وهدمُ الدين إذا ذهب حقُّ الصحابة، فمن الذي حفظ الدين؟ ومن الذي شهد مشاهد التنزيل؟ ومن هم الذين كانوا شاهدين على قوله وسمته ودلّه -بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه- حتى حفظوا لنا أدقَّ الأمور وأدقَّ التفاصيل، بل إنك تجد الصحابيَّ يغضبُ عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- غضبًا في أمرٍ، فيذكر أنَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- غضب عليه، ما يدُسُّ ذلك، ولذلك تجده: ((فوجد النبي -صلى الله عليه وسلم-)) حتى صفحات وجهه حينما تتغيَّرُ يذكرونها، ليس هذا غلوًّا، ولكن هذا يدلُّ دلالة واضحة على الأمانة في حفظ السنة، والسنة من الدين، ولذلك فخرٌ وأيُّ فخرٍ؟! وعزٌّ وأيُّ عزٍّ ونعمة من الله -عزَّ وجلَّ- أعطاه الله لهذه الأمة في صحابته؟!!

وقلَّ أن تقرأ حديثًا إلا وترضيت من قرارة قلبك بأنَّ الرضا على أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وبهذا يهتدي العبدُ، ويهتدي الموقِّ بإذن الله، أنه يسيرُ على نهج الكتاب والسنة في حفظ حرمة أصحاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

وقد بيَّن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنهم قد بلغوا الشأوَ العظيمَ، حتى ((لو أنَّ أحدنا أنفقَ مثلَ أحدٍ ذهبًا ما بلغ مدَّ أحدِهِم ولا نصيفُهُ))، وهذا كله يدلُّ على علو المقام، فإذا كان عند رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فكَذلك هو عند الله -جلَّ جلالُهُ-؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحيُّ يُوحى. نعم أحبَّهم الله، وأحبَّهم رسوله، وشهد الله من فوق سبع سماواتٍ أنهم {رِجَالٌ صدَّقُوا مَا عَاهَدُوا الله عَلَيْهِ}، وشهد الله من فوق سبع سماواتٍ أنه اطلع على قلوبهم: {لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ}، بايعوه على الموت -رضي الله عنهم وأرضاهم وجعل أَعَالِي الْفِرْدَوْسِ مَسْكَنَهُمْ وَمَثْوَاهُمْ-.

وقال -بِأَيِّ وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ- كما في الصحيح: ((لن يلج النار أحدٌ بايع تحت الشجرة))، فهؤلاء كانوا في مقام الرضا، فيذكرهم العلماء والأئمة بالدعاء وبصالح الذكر حتى تحفظ الأئمة لأصحاب نبيها -صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ- حقهم.

قال -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [الحمد لله، وصلى الله على محمد، وعلى آله وصحبه وسلم]، قوله -رَحِمَهُ اللَّهُ-: [وسلم] السَّلام: الدعاء بالسلامة، (السَّلام عليكم): سلمكم الله من سوء ومن المكروه، والسَّلام: اسمٌ من أسماء الله، وتحيّة أهل الجنة سلامٌ: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ}، فالله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هو السَّلام، ومنه السَّلام، وفي الحديث الصحيح: ((اللهم أنت السَّلام، ومنك السَّلام))، فلا سالم إلا من سلّمه الله، وإذا أراد الله أن يسلم عبده من مكروه الدنيا، فلو اجتمع الخلق كلهم على أن يضروه لم يضروه بشيء؛ لأنَّ الله سلّمه، فنسأل الله لنا ولكم السَّلامة في الدِّين والدُّنيا والآخرة.

والتَّسليم هو هدي الكتاب، فالصلاة على النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن تجمع بين الصلاة والسلام؛ لأنَّ الله قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا}، فكان العلماء يقولون: (السنة في الصلاة والسلام على الأكمل والأفضل الجمع بين الصلاة والسلام عليه -بِأَيِّ وَأُمِّي صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ-).

قال -رحمه الله-: [كتاب التوحيد، وقول الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}].

الشرح:

هذا هو الباب الأول من كتاب التوحيد، لم يذكر الإمام -رحمه الله- ترجمة، لم يقل: (باب كذا) كعادته، ولذلك اختلف الشراح: هل هذا هو مقدمة الكتاب، والباب الذي يليه هو الباب الأول، أم أن هذا هو الباب الأول؟

وجاء في رسالة كتبها -رحمه الله- إلى ثنيان أخ الإمام محمد بن سعود، يصف الباب الذي يلي هذا الباب بأنه الباب الثاني؛ فدل على أنه قد جعل هذا الباب الباب الأول، وهذا من الإمام نفسه -رحمه الله-.

ويلاحظ: أن الإمام -رحمه الله- لم يذكر مقدمة لكتابه، واعتذر العلماء والشراح بعضهم اعتذر بعذر لطيف، قال: إن هذا يفهم منه؛ لأننا ما ندري عن قصده، لكن العلماء لا شك أن المقاصد إذا كانت تدل عليها القرائن فتذكر، قالوا: إنه كآته يعظم أمر التوحيد، فلم يقدم بأي كلام عليه، وهذا معنى جميل، واستنباط بديع، ما ذكر خطبة، هو الإمام -رحمه الله- حينما تذكر في تفسيره وفي كتبه تجده دقيقاً، قليل الهد، وقليل الكلام، ليس معنى هذا أن الخطب أنها حشو أو زيادة، لا، لكن جرت عادة العلماء والأئمة أن يذكروا في مقدمة الكتب مقاصد الكتاب، وأن يبينوا منهجهم، وأن يحددوا المعالم التي يستفيد قارئ الكتاب عند اطلاعه عليها غاية الاستفادة من كتبهم.

الإمام -رحمه الله- لم يذكر مقدمة، فقالوا: إنه تأدب، فلم يقدم بين يدي الله ورسوله، فقال: **[وقول الله تعالى]**، فابتدأ بكلام الله، وابتدأ بكلام رسوله -عليه الصلاة والسلام-، وهذا نعم المبتدأ، وخاصة أنه صرح أن الباب الثاني هو الذي يلي هذا الباب، ففيه شيء من تعظيم ما هو بصدده، لم يقدم عليه كلاماً، وترك للآيات والأحاديث أن تدل الموفق بدلائلها ومعانيها.

[التوحيد]: من "وحد يوحد توحيداً": إذا أفرد الشيء وميزه عن غيره، والله -سبحانه وتعالى- هو المستحق لذلك في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، فإذا اعتقد أسماء الله وصفاته التي دل عليها دليل الكتاب والسنة أنها لله -عز وجل- بما يليق به، وأنه لا يشاركه فيها أحد، فهذا هو التوحيد في الأسماء والصفات.

والتَّوْحِيدُ في الربوبية: توحيدُ الله في أفعاله، في خلقه وتدبيره ورزقه وتقديره، والمقادير التي قَدَرَهَا، هذا كُلُّهُ من توحيد الله في أفعاله هو سبحانه، فلا يَرْزُقُ الخلقَ إلا الله: {هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ}، والجواب: لا، وكذلك هو سبحانه الذي خلق الخلق، وهو الذي رزقهم، وهو الذي دَبَّرَ أمورهم وشؤونهم وأحوالهم، وقَسَمَ بينهم الأرزاق، فلم ينسَ فردًا ولا أحدًا، وعلم مقادير الأشياء فخلقها على أتم خلقه، {صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}.

لو جُنَّتْ تنظرُ إلى بديع خلقه وجميل صنعه تعتقدُ أنه بديعُ السماوات والأرض، أبدع كلَّ شيء خلقه، فتصبح موحَّدًا لله في أفعاله، ليس هناك أحدٌ سواه يُوصَفُ بهذا الوصف، خلق فأتَمَّ الخلقة، وصوَّرَ فأتَمَّ الصورة، وقَدَّرَ ودَبَّرَ، وكلَّ شيءٍ فَصَّلَهُ تفصيلاً سبحانه.

لن يستطيع الخلائق أن يستدركوا عليه شيئاً ولو أقلَّ من الدَّرة، أعجز العلماء، وأعجز الحكماء، وأعجز كلَّ من بحث، كلَّ يومٍ يجد شيئاً جديداً لا يساوي ذرَّةً من عظمتِهِ في خلقه وتدبيره، فعندها يشهدُ ويوحِّدُهُ شهادةَ التوحيد: أنه لا خالقَ سواه، {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}، يوحِّدُهُ في ربوبيته.

يوحِّدُهُ في ألوهيته: وهو توحيدُ العبد لله -جَلَّ وَعَلَا- بأفعاله، أفعال العبد، فلا يخافُ إلا الله، ولا يرجو إلا الله، ولا يستغيثُ إلا بالله، وكذلك أيضاً يوحِّدُهُ في ذبحه ونذره وطوافه، فلا يطوفُ بالقبور ولا بالمشاهد ولا بالأوثان، وإنما يطوفُ ببيت الله لله مخلصاً لله -جَلَّ جَلَالُهُ-.

توحيدُ الله -عَزَّ وَجَلَّ- توحيدُ الألوهية، وهذا هو الذي يقعُ فيه الشُّركُ، ويقعُ فيه الخللُ، فيُصَرَفُ ما لله لغير الله، ويُدعى غيرُ الله، ويُطلَبُ منه ما لا يقدرُ عليه إلا الله، يطلبون من أصحاب القبور والمشاهد والأضرحة أن يغاثوهم إذا خافوا، أن يُؤمِّنوهم من الخوف، أو يغاثوهم عند الفزع، {يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُ وَمَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ}.

بئس المولى وبئس العشيرُ إذا أُتِّخَذَ من دون الله بالنسبة لمن يعتقده ويرضى بذلك.

وأما إذا كان لا يرضى، كعيسى بن مريم -عَلَيْهِ السَّلَامُ- لما عُبدَ، فإنه لا يرضى، ولم يأمر بعبادته، أما من رضي بذلك فبئس المولى وبئس العشيرُ للثنتين: للعابد والمعبود.

فالعكوفُ على القبور والمشاهد والأضرحة، وسؤال أهلها ما لا يُسألُ إلا من الله من مغفرة الذنوب وتفريج الكرب وإصلاح الأحوال، والاستجارة بهم والاستغاثة بهم والاستعاذة بهم، وكذلك أيضاً الخوفُ من الشياطين وأعوانهم من السَّحرة والمشعوذين والكهنة، فهذا من أعظم ما يخلُ بالتوحيد.

فالتوحيد: أن توحد الله بأفعاله، وهو توحيد الربوبية، وتوحدته في أفعالك واعتقادك ومعتقدك، وهو توحيد الألوهية يسمونه (توحيد العبادة)، وتوحد الله في أسمائه وصفاته، فلا تمثل الله بخلقه، ولا تشبهه بغيره، فتثبت لله ما أثبت لنفسه بلا تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل، ولذلك التأويل ضرب من التعطيل، يقول الله -عز وجل-: {لَمَّا خَلَّقتُ بِيَدَيَّ}، فيقولون: (بنعمتي)، وكان الصحابة ومن بعدهم كانوا يقرأون الآية بلسان العرب، ويعرفون دلالة اليد على معناها.

فتوحيد الله -عز وجل- في أسمائه وصفاته: أن نثبت لله ما أثبتته لنفسه، وأن يكون هذا الإثبات من غير تأويل ولا تعطيل ولا تشبيه ولا تمثيل، ولا يشبه الله بخلقه، ولذلك التأويل كما ذكرنا ضرب من التعطيل، فالله -عز وجل- أثبت لنفسه في كتابه وسنة نبيه -صلوات الله وسلامه عليه- الصحيحة الثابتة عنه صفات ((ينزل ربنا في كل ليلة في الثلث الآخر إلى السماء الدنيا))، يقول: (تنزل رحمته)، رحمه الله نازلة في كل وقت وحين، نص واضح: ((ينزل ربنا))، يقول: (تنزل رحمته).

كان الصحابة رضوان الله عليهم -يسمعون هذه الأحاديث، ويعرفونها بلسان العرب، ويعتقدون معناها، {الرحمن على العرش استوى} علا وارتفع، يأتي من يصرفها عن مدلولها اللغوي إلى غير ظاهره، فيقول: (استولى)، ولذلك لما سئل إمام دار الهجرة قال: ((الاستواء معلوم))؛ لأن الله خاطب العرب بلسان عربي مبين، معناه واضح الدلالة، لا يصرف عن هذا المعنى الذي نزل به القرآن: {بلسان عربي مبين}، ((الاستواء معلوم، والكيف مجهول)).

فإذا أثبتنا لله أنه ينزل ليس معناها أن نقول: (إنه ينزل نزول المخلوق) تعالى الله، نقول: نزولاً يليق بعظمته وجلاله، هنا توحدته وتفرده عن غيره، فتثبت الصفة له على وجه لا يشاركه فيها غيره، وبهذا تكون قد وحدت الله في أسمائه وصفاته.

فتوحيد الله في ربوبيته، وفي ألوهيته، وفي أسمائه وصفاته.

والكتاب في قوله: [كتاب التوحيد] مأخوذ من الكتب، وهو الجمع والضم، ومنه: قولهم: "تكتب القوم": إذا اجتمعوا، وسميت الكتيبة كتيبة؛ لاجتماع فرسانها وانضمام بعضهم إلى بعض، قالوا: سميت كتب العلم كتباً؛ لأنها تضم فيها المسائل والحروف، الكتاب إذا كتبتة ضمنت الحروف بعضها إلى بعض، فهذا مناسبة تسمية الكتاب به.

[كتاب التوحيد]: أي في هذا الموضع أو في هذا السفر المبارك سأذكر لك ما يدل على توحيد الله وما يضاده ويخالفه، أو يؤثر في كماله، كل هذا -رحمة الله- اعتنى بذكره في كتاب التوحيد، ولم يذكر

باباً كما ذكرنا، ولم يذكر ترجمةً، وإنما شرع مباشرةً بقوله: [وقول الله تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}]

هذه الآية الكريمة في خاتمة سورة الذاريات، {وَمَا خَلَقْتُ}: فيه إثبات صفة الخلق لله، وقد قال الله في كتابه: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}، {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ}، فأثبت لنفسه أنه خلق كل شيء، فقال: {وَمَا خَلَقْتُ}.

ثم إنه -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- علّم عباده في هذه الآية العظيمة التي هي أصل من أصول التوحيد، أنه خلق الخلق من أجل توحيدهِ وإفراده بالعبادة.

الخلق في لغة العرب: الإيجاد، "خلق الشيء": إذا أوجده.

وقوله: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ} يدل على أنه لم يخلق الجن والإنس وغيرهم إلا الله وحده، لكنه ذكر الجن والإنس؛ لأنه يريد أن يبين أمراً مهماً وغاية مرادة من خلقهم.

{وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ}: الجن: من "جن الشيء": إذا استتر، وقُدّم الجن على الإنس، قال بعض العلماء: لأنهم في الخلق سبقوا الإنس، وإلا فقد كرم الله بني آدم، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلاً، ولما كان الأمر متعلّقاً بالخلق ذكر أول من خُلق، وهم الجن، فقد سبقوا الإنس كما هو معلوم؛ لأنّ الجن ذرية إبليس، الشيطان، والشيطان كان خلقه قبل خلق آدم، ولذلك قال: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ}، سُموا بذلك أو وُصفوا بكونهم جنّاً أي مستترين، ومنه: سُميت الجنة البستان، الجنة؛ لأنها تستر من بداخلها، وقيل: الجنة؛ لأنّ أكثر ما فيها الزروع كما أخبر الله بذلك في كتابه.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.